

## ليلي المريضة في العراق

للدكتور زكي مبارك

( بقية المقال الحادي والعشرين )

وفي وادي السلام بقول الأستاذ علي الشرق :

ثلاثون جيلاً قد نوت في قرارة  
تراحم في عُرب وُفوس وأكراد  
ففي الخمة الأشبار دُكَّت مدائنُ  
وقد طُويت في حُفرة ألف بمداد  
عبرت على الوادي وسفَّت مجاجة  
فكم من بلاد في الفبار وكم ناد  
وأبقيت لم أنفض عن الرأس تربه  
لأرفع تكريماً على الرأس أجدادى

وكذلك كان الدخول إلى النجف من باب السلام ،  
أى الموت !

ومحنت عن فندق فكان فندق السلام فتشاءمت ، ثم أسلمت  
نفسى إليه ، لعلنى بأنى صائر لا محالة إلى السلام ، أى إلى الموت !  
ثم رأيت فندق السلام بالنجف شبيهاً بأخيه فندق السلام  
في حى سيدنا الحسين بالقاهرة . رأيت الناس يتامون زرافات  
في حجرة واحدة ، فأخذت أمتعى وانصرفت ، وذهبت إلى  
فندق نان فرأيتته أعجب من الأول ، فضيت إلى ثالث فرأيتته  
أعرب من أخويه ، وانتهى بي المطاف إلى غرفة حقيرة في فندق  
حقير هو أعظم الفنادق بالنجف

ولعل الفنادق كانت كذلك لقرها من وادي السلام ، فهي  
تروض المرء على قبول الدفن مع من يعرف ومن لا يعرف ،  
وتقرَّب إلى ذهنه صورة المساواة في دنيا الأموات

\*\*\*

كان غبار السفر الذى دام أكثر من أربع ساعات آذاني ،  
وكنت أحب أن أصلح من شأنى في الفندق لأستمد لمقابلة الهاليل  
من آل ليلي ، فلم أجد في الفندق ما يسمف ، ولكن لا بأس  
فسيعلم النجفيون بمد ساعات أنى نزلت في فندق فيمضبون

ويقولون ( هذه فضيحة ) وينقلون أمتعى إلى منزل أحد الأصدقاء  
وعندئذ أذكر أن النزول في الفندق كان عند أهل العراق

علامة من علام المسكنة ، يشهد بذلك قول الشاعر القديم

يا أيها السائل عن منزلى نزلت في الخان على نفسى  
آكل من خبزى ومن كسرتى حتى اقد أوجمنى ضرسى

ويشهد بذلك قول شاعر حديث هو الرصافي :

سكنت الخان في بلدى كأنى أخو سفر تقياً ذفه الدروب  
وأصرخ في وجه النجفين قائلاً : إن المدينة التي تخلو من  
فندق نظيف لا تسمى مدينة ، والدين عاشوا في أوربا كما عشت  
لا يستطيعون النزول في منازل الأصدقاء ، والفندق النظيف هو  
المأوى الطيب للضيف ، والحكومة المصرية لا تنزل ضيوفها في  
غير الفنادق ، لأنها تعرف قيمة الفنادق ، وكذلك تصنع حكومة  
العراق حين تستقبل ضيوفها في بمداد

فيا أهل النجف ، تذكروا أن مدينتكم في حاجة إلى فندق  
نظيف ، وتذكروا أن مثل ذلك الفندق ينقل مدينتكم من حال  
إلى أحوال

\*\*\*

خرجت من الفندق أتلفت ذات اليمين وذات الشمال لأرى  
شبهات ليلي ، شفا الله ليلي وشقاني ، ومنحني وإياها المزاء يوم  
الفراق ، إن كان لنا سبيل إلى التلاق قبل الفراق

وساقتنى قدماى ، بل هداني قلبى إلى الحرم الحيدرى  
وقفت بصحن الحرم كالأرقم ، والحد لله على نعمة المافية ،  
وليته يتفضل بحفظ هذه المافية ولو عشر سنين لأداوى جميع  
المرضى من الملاح

وقلت في نفسى : أنا تليذ الشريف الرضى الذي يقول :  
لو أنها بفناء البيت سأمحة لصدتها وابتدعت الصيدى في الحرم  
فإذا كان الشريف استباح الصيد فى الحرم النبوى فأنا  
أستبيحه فى الحرم الحيدرى

ودرت حول الضريح مرتين ، ثم وقع البصر على فتاة ساجية  
الطرف مشرقة الجبين تخفق القلب  
ثم وقفت

أصول عينها بعينى والهوى يشيع الحيا فى نوادى وأعضانى

إن صفا العيش فما كان صفاً أو تلاقينا فقد لا نلتقي  
وعند ذلك الضريح طال بكائي ، فهذا شاعر قضي حياته  
في التنفي بالجمال ، ثم رآه النجفيون صوفياً فدفنوه بجوار أمير  
المؤمنين ، وأنا أفنيت شبابي في التنفي بالجمال ولم أجد غير المعقود !  
فتى يعرف قومي أنى صوفى يؤمن بوحدة الوجود ؟  
ومتى يعرف قومي أنى أصدق تلاميذ ابن الفارض في هذا  
الزمان ؟

الهم لطفك ورحمتك ، فقد طال بلائى بالناس !

\*\*\*

ينستُ من الصيد في الحرم الحيدري بعد فرار تلك الفزاة ،  
وبدأتُ أعتب على سيدنا علي بن أبي طالب ، فثقل لا يُكرّم في  
رحابه بالماش والجلاش ، وإنما يكرم مثلي بالهيام في أودية الفنون ،  
وما كنت في حياتي من الفاسقين ، وإنما كنت مؤمناً بتقرب  
إلى ربه بعبادة الجمال

وفي حومة هذا المَتَّب تذكرت أن لي في النجف صديقاً  
من تلاميذ الأستاذ محمد هاشم عطية هو السيد محمد تقي آل الشيخ  
راضى ، فقلت أذهب إليه عشاء يجيد السبيل إلى الطيبة التي نفرت  
منى ، ولكنى ما كدت أصل إلى منزله بمد طول البحث حتى  
وجدته في ارتياح ، فقد علم أن الشرطة في النجف تبحث عني ،  
لأنى في ظنهم وردت النجف لمطاردة الظباء ، وقد رأى بفطرته  
السليمة أن بنى الشبهة فدعا علماء النجف للتسليم على العالم العلامة  
الدكتور زكي مبارك !

وما هي إلا لحظة حتى كانت الدار تموج بالغرّ البهليل من  
أقطاب النجف

وجلست بين القوم جلسة العالم الحق ، وما يصعب على أن  
أمثل هذا الدور الفطيع ، فانتقدت صاحب مجلة الحضارة لأنه  
يدعو إلى تمديد المذاهب القديمة في التعليم ، وقلت إن مذاهب  
التعليم في النجف كمذاهب التعليم في الأزهر لا ينبغي أن تزول  
وعجب القوم من أن يصدر هذا القول عن رجل متخرج  
في السوربون

ولكنى في الواقع لم أكن مراثياً ، فقد صح عندي أن  
الأساليب الأزهرية والنجفية أساليب تنفع أجزل النفع في رياضة

وظنت الفتاة أنها أقدر منى على الفنون ، فحاولت قتلى ، ثم  
لطف الهوي فصرعتها ، فجمعت ما تبدد من قواها ، وفرت فرار  
الغزال الطمون  
وعَدوتُ لاقتناصها فلم أفلح . وكيف يمدو النشوان وهو  
كالقيد في الشوك !

من أى سحر صيغت تلك العيون ؟

وإلى أية غاية تسير تلك العيون ؟

ولأية حكمة خلقت المقادير تلك العيون ؟

لقد أفلح الدساس الظريف الذى تقلنى إلى النجف ، وهو

على ظرفه لثيم خبيث

وبالنجف الحارى<sup>(١)</sup> إن زرت أهله

مها مهملات ما عليهن سائس  
خرجن بحب الهوى في غير رية عفاف باغى الهوى منهن آيس  
ثم طقت بالحرم مرة ثانية فوجدت ناساً يقرأون أديبات  
وصلوات وحولم نساء ييكنن ورجال ييكونن ، فوفقت أسمع وأبكي ،  
وهل في الدنيا بلاء مثل بلائى ؟ أما العاشق المهجور الذى غدرت  
به ليلاه . ولو كانت ليلى واحدة لصبرت ، ولكنهن ليليات !  
فيا بديع الملاحات ويا فاطر السموات ، كيف ترى حالى !  
ويا خالق النخيل والأعتاب ، كيف سكبت الصهباء في روحي ؟  
ويا مجرى السمع في الشؤن ، كيف علمتني وعلت الجاهم النواج  
وما الذى أهددت لتكريمي يوم ألك وقد سبحت بحمدك  
فوق أفنان الجمال !

وما عندك لسلامتى من الناس ، وقد خاصمت فيك جميع  
الناس !

\*\*\*

ولطفت بصحن الحرم مرة نائلة فوجدت ضريح الجبوبي  
الذى يقول :

استقى كأساً وخذ كأساً إليك فلذيد العيش أنت نشركا  
وإذا أُجِدت بها من شفتيك فاسقنها وخذ الأولى لكا  
أو نحسي خمرة من ناظريك أذهبت نسكي وأنحت منسكا  
وانهب الوقت ودع ما سلفا واغتم صفوك قبل الرنق

(١) الحارى نسبة إلى الحيرة على غير قياس . وفي معجم ياقوت ( الجارى )

وهو تحريف

العقل ، يضاف إلى ذلك أن الأزهر هو الذي حفظ اللغة العربية في عهد المالك ، وأن النجف هو الذي حفظ اللغة العربية في عهد الأتراك ، ورعاية المهدي توجب الإبقاء على تلك الأساليب التي استطاعت أن ترسل النور الوهاج في دياجير الظلمات وبعد طول الحوار فهمت أن في النجف ثورة فكرية تشبه الثورة التي وقعت في الأزهر منذ أكثر من ربع قرن ، وعرفت أن طلبة العلم في النجف يريدون أن يثيروا حالمهم ليسايروا مناهج التعليم في العصر الحديث

وقد تأكد ذلك المعنى حين قال الأستاذ الصوري : ما رأيك يا دكتور في أن أخلع عمامتي ؟ قلت : أنا أبغض المعممين الذين يخلمون عماماتهم ! فقال : هل تعرف ما قلت في المهامة ؟ لقد قلت : إنها منعت رزق وفسقت فابتسمت وقلت : وكيف تعيش يا مسكين بلا رزق ، وبلا فسق ؟!

وتقدم الأستاذ البلاغي صاحب مجلة الاعتدال فقص أحاديث يشيب لها الوليد ، ومنها عرفت أن طلبة العلم في النجف يعيشون في بؤس . وقد طفر الدمع من عيني حين سمعت أن عالماً نجفياً أشرت إليه في كتاب ( عبقرية الشريف الرضي ) جلس في صحن الحرم الحيدري يبيع كتبه ليست ما عليه من ديون ، ديون لم يجنّها هو ولا مجنون ، وإنما جناها الخبز والماء

وكان هذا العالم المحقق لقيني في الكاظمية منذ أشهر ، لقيني لقاء المساكين ؛ ولما لقيني في النجف تبسم وقال : كنت في الكاظمية غريباً ، وأنا اليوم في بلدي ، وأنا حاضر لخدمتك وكنت أحب أن أقبل دعوته الكريمة ، ولكنني وأسفاه كنت عرفت ترجمة حاله منذ لحظات ففرت من كرمه بترفق وتلطف لا تحزن أيها الزميل ؛ فسيكون لي ولك مكان بين الصابرين لا تحزن ، فاللهنا أحقر من أن يبكي على نعيمها أحرار الرجال لقد سمعت أنك بمت دارك بثمان بئس لتسد بئرك . فهل علمت أن لك عقيب الدار يوم يجزي الله الصابرين ؟

\*\*\*

ثم مضيت فطوّفت بالنجف وحولى جيش من أهل العلم والأدب والبيان ، وفي أحد المنقطعات وقع البصر على طفلة من

قربيات ليلى ، فددت يدي أمسح خدها الأسيل فصرخت ، وتضاحك الرفاق ، ولكنني سأرجع بأذن الله إلى النجف لأعرف أهل تلك الطفلة وأخطبها لأحد أبنائي ، وبيت أهلها يقع في دربونة متصلة بدربونتين إحداها توصل إلى الرابطة الأدبية ، والثانية توصل إلى الحرم الحيدري ، ولذلك البيت روشن عليه برادة ، وبداخله برّ ومرداب ، وفوق الروشن حمامتان تسجمان ، وفوق عتبات ذلك البيت تتحدر مدامع المشاق

يا شبيهة ليلى في حسنها ودلالها ولؤلؤها وغدرها ، ترفق بقلبي فقد تركته في الدربونة لندوسه في كل صباح أقدامك الرفاق يا شبيهة « كريمة » الغالية التي تداعب أباه في الأحلام تذكري أن طيفاً زارك في النجف ولن يعود . يا أخت « زينب » ، تذكري أن الرجل الذي مدّ يمينه لي مسح خدك الأسيل لم يكن فاجراً ، وإنما هو مجاهد ترك وطنه وأهله في سبيل العقيدة والوجدان

إليك دمي يا حلوة يا جميلة ، وهو دمعٌ تمرّد على الخطوب ، ثم أذلت عيون الملاح . أحبك أيها الطفلة الوسيمة وأشتهى أن أسمع صراخك مرة ثانية ، فإني كان وحق الحب إلا صراخ الدلال واستيقظت في اليوم التالي مبكراً لأرى الكوفة ، ولأقف باطلا لها كما وقف أستاذي ماسينيون ، وكان أكبر همّي أن أرى مسجد الكوفة الذي طُمن فيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، والذي فار في زاويته التنوير لهد نوح عليه السلام ، والذي صلى فيه ألف نبي وألف وصي ، والذي فيه عصا موسى ، والذي هلك فيه ينوث ويعوق ، والذي يحشر منه يوم القيامة سبعون ألفاً ليس عليهم حساب ، وفي وسطه روضة من رياض الجنة كذلك تقول الأساطير

وما كانت في عيني وقلبي أساطير ، وإن كنت تلميذ منصور فهمي وطه حسين لقد شهدت بعيني كيف طُمن علي بن أبي طالب ورأيت دمه رأى البيان ورأيت المكان الذي خطب فيه الحجاج خطبته المشهورة ، الحجاج الهائل الذي أصلح العراق ، وأفسد العراق

ورأيت قبر مسلم بن عقيل رسول الحسين ، ورأيت كيف يبكي الناس على قبره وكأنما قتل بالأمس ، فتذكرت أن العراق

وفدت على أطلال قصرك وأنا جائع ظآن ذا تزودت غير  
الأسى والأنين  
وفدت على أطلال أنكرتها العين ، وعرفها القلب  
وفدت على أطلال لم يعرفها جيرانك من أهل النجف ،  
وعرفها شاعر مصري مظلوم ينكره أهله ، كما أنكرك أهلك  
فيا زميلي في البؤس والشقاء ، سلام عليك  
ثم مضينا نتمتع النظر بطفيان الفرات ، وأين طفيان الفرات  
من طفيان قلبي !

هذه الكوفة الاسلامية ، وتلك الحيرة الجاهلية ، وأولئك  
النافلون من العرب والمسلمين . فيارب الأرباب أتقذ عبدك  
المسكين من ظلم الجحود والمعوق  
\* \* \*

ورجعت إلى النجف أسأل عن أخوات ليلى ، ولكن  
كيف ؟ إن النجف كله بطارد الماشق المسكين الذي ضيع مستقبله  
في سبيل هواه

ويصمم النجفيون على إقامة حفلة تكريم للدكتور زكي مبارك  
فأرفض ، لأن تلك الحفلة كانت توجب أن أتخلف عن دروسي في  
دار المعلمين العالية ، وأتخلى عن دروسي أمر مستحيل . وكذلك  
أقهر علماء النجف وأمتلئ السيارة إلى بغداد

رجعت في زى المساكين لأنني لم أجده الشفيح إلى ليلى  
رجعت ذليلاً مقهوراً ، فإذا أصنع ؟  
آه من حبي وغرامي وبلواي !

لقد هجرت ليلى وصدقت عنى ظمياء  
فلاذهب إلى الموصل لأستشفع بقريبات ليلى هناك  
إلى الموصل التي رقدت في نراه عظام أبي تمام أمتلئ قطار  
المساء ...

زكي مبارك

( للحدث شجون )

## إشترك الصيف

تقبل إدارة الرسالة والرواية الاشتراك الشهرى  
في المجلدين أو في امرهما تسريدا على حضرات القراء  
في راحة الصيف ومقدار الاشتراك في الرسالة  
أربعة قروش وفي الرواية قرشاً ترفع سلفاً

يحوى ثروة عظيمة جداً من الحماسة الوجدانية ، وتذكرت أن  
العراق تغلب عليه سرعة الانفعال ، فهو يقتل الصلح بلا ترفق ،  
ثم يجعل البكاء عليه شريعة من الشرائع  
تذكرت أن العراق كالفوة الكهربائية التي تحي وتحيث ،  
وهو ينتظر رجلاً في طفيان الفرات وسماحة النيل  
إن العراق من قوى المروية والاسلام ، ولكن أين من يعرف ؟  
لقد هداني العراق وأضلني ، وكان على الدهر مصدر هداية وضلال  
\* \* \*

ثم مضيت أتلمس آثار الحيرة البيضاء ، مضيت أتلمس آثار  
الخورنق ، فلم أعرف ولم يعرف رفاقي أين الخورنق

وكان هيامي بأطلال الحيرة موسماً من مواسم الشعر والخيال ،  
وفي ذلك الهيام عرفت شيئاً من مدينة العرب في الجاهلية  
ولو كان لي شيء من الأمر في حكومة العراق لأجريت نهر  
السدير من جديد لأنقش في وجه الزمن ذكريات النمان

مضينا إلى أطلال الخورنق مع سائق جهول فقادنا إلى مكان  
موحش ، فقال الرفاق : ليس هذا مكان الخورنق . فقال السائق :  
أنتم تبحثون عن أحجار ، وههنا أحجار !  
صدقت أيها الجهول ، فنحن نبحت عن أحجار ، ولكننا  
نبحت عن أحجار نواطين !

عندئذ تذكرت فراعين مصر ، فقد كانوا يدركون أن الزمن  
لثيم غدار ، وأن التاريخ كلام في كلام ، فبنوا أهرامهم وقصورهم  
بأساليب بمنجز عن فهمها الزمان

وقد تقوضت آثار الملوك في المشرقين والمغربين ومجز الدهر  
النادر عن هدم آثار الفراعين

ما أشقاك في دنياك وأخراك أيها النمان ! أنت قتلت سينمار  
ليبقى سر الخورنق ، فهل يبقى الخورنق ؟

ليتك استعنت الجندي الجهول في وادي النيل ، ليتك بنيت  
هرماً بمنجز اللثام عن نقل أحجاره لينبوا بيوتهم الخاوية  
أيها النمان ، سلام عليك من شاعر مصري يبكي لمصيرك  
في التاريخ !

أيها النمان ، أيها الملك العربي العظيم ، أين الخورنق وأين  
السدير ... ؟

إعترف أيها الملك بمظلمة الشعر والشعراء ، فنحن الذين حفظنا  
مكانك في التاريخ ، ولولا الشعراء لطمس الزمن مكانك في التاريخ